حول قضية النظم

د/ عبد الحميد مصطفى

(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعد :

فهذا هو المقال الثانى الذى أكتبه عن قضية النظم ، وقد نشر المقال الأول فى مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية ، العدد الأول ، وبمشيئة الله آمل أن ينشر هذا المقال فى العدد الثانى لنفس المجلة ...

وقد استهوتنى الكتابة فى قضية النظم لا لشىء سوى أنى أكتب فى علم البلاغة وقضية النظم هى البلاغة بكل علومها ومباحثها وجوانبها . ولا تعجب إذا قلت لك إن كل من كتبوا أو يكتبون فى البلاغة إنما يكتبون عن النظم ، فبالرغم من اختلاف مناهج المؤلفين والباحثين فى تلك العلوم فإن هدفهم فى النهاية هو الوصول إلى الدرجة التى يستطيعون بها التمييز بين نظم حسن وآخر رديء .

وقد قلت فى مقالى السابق إن النظم هو التطبيق العملى للبلاغة لأن معناه ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعانى ترتيبا دقيقاً يتوافق مع الحال والمقام .

مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد الثاني ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م

وذكرت أن اختيار اللفظ يحتاج إلى دقة وليس هو بالأمر الهين كما يتوهم البعض ... وأود هنا أن أناقش قضية أخرى تخص اللفظ أيضا ... تلك هى أن الألفاظ من حيث هى ألفاظ لا توصف بالحسن أو القبح وإنما الذى يوصف بالحسن أو القبح هو موقعها من النظم ، وقول البلاغيين لفظ حسن ولفظ ردىء لا يعنون به اللفظ نفسه وإنما يعنون أن موقع اللفظ من النظم حسن أو قبيح ...

فليست هناك إذاً لفظة حسنة ولفظة قبيحة وإنما تحسن اللفظة وتقبح باستعمال الشاعر أو الكاتب لها وكم من ألفاظ يعتقد الناس أنها ألفاظ غير غير شاعرية ، أى لا تحسن فى الشعر ، فإذا استخدمها الشاعر استخداما حسناً كان لها من الجمال والرونق ما لا يكون لأجمل الألفاظ صوتا وأعذبها نطقاً ، فهذه لفظة « الطين » مثلا قد يظن البعض أنها لا تستعذب فى الشعر فإذا بالشاعر إيليا أبى ماضى يستخدمها فى قوله :

تسى الطين يوما أنه طين حقير فصال تيها وعربد

وكسا الخز جسمه فتباهى وحوى المال كيسه فتمرد

فتجىء فى موقعها كأجمل ما يمكن وتؤدى معنى لا يمكن للفظة أخرى أن تؤديه وما ذاك إلا لأن الشاعر قد استعملها استعمالا مجازيا فذكرت الإنسان المتكبر بأصله كى يتأمله فيرتدع عن كبره وتعاليه ويخر ساجداً لله تعالى على ما أنعم به عليه من خلقة حسنة — ونعم لا تحصى ولا تعد .

وليس هناك أدل على ذلك من أنك ترى اللفظة وقد وقعت موقعاً يروقك فى نظم فتعجب بها . فإذا تأملتها فى نظم آخر وجدتها على عكس الأول . يقول إمام البلاغة عبد القاهر الجرجانى « ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك

فى موضع آخر ، وذلك كلفظ « الأخدع » فى بيت العصمة بن عبد الله بن طفيل ابن الحارث :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى ... وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

وبيت البحترى :

ولى وإن بلغتنى شرف الغنى ... وأعتقت من رق المطامع أخدعى (١)

فإن لها من هذين المكانين مالا يخفى من الحسن .

ثم إنك تتأملها فى بيت أبى تمام :

يادهر قوم من أخدعيك فقد ... أضجعت هذا الأنام من خرقك (٢)

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة والإيناس والبهجة (٣) » .

ولم يعلل الإمام عبد القاهر سر الحسن فى البيتين الأولين ، وسر القبح فى البيت الثالث . ولعله ترك ذلك لوضوحه .

واللمحة فى البيت الأول متناسبة مع الألفاظ « تلفت » ، « ووجعت » « وليتا » ، وفى البيت الثانى متناسبة مع « أعتقت من رق المطامع » « فالعتق » يتناسب مع « العنق » ، والقبح فى البيت الثالث إنما كان لأنه أجرى اللمحة على الدهر فكانت من الاستعارات القبيحة ...

هذا ما أراه وإن كان ابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » يرى أن سبب

---

(١) الأخدعان : عرقان فى جانبى العنق ، الليت صفحة العنق .
(٢) الخرق بالضم : العنف وكذلك الحمق والجهل .
(٣) دلائل الإعجاز ص ٤٧ .

ذلك هو أن الكلمة جاءت موحدة فى البيتين ومثناة فى البيت الثالث فكانت حسنه فى حالة الإفراد مستكره فى حالة التثنية(١) .

ولعل الإمام عبد القاهر أراد أن يبعد شبهة أن تكون التثنية هى سبب الثقل والكراهة فى هذا الموطن ويؤكد أن سبب الحسن أو القبح إنما هو فى ملائمة معنى اللفظة لمعانى جاراتها أوعدم ملائمتها فأتى بمثال لكلمة أخرى جاءت مفردة فى المواضع الثلاثة فحسنت فى مكانين وثقلت فى الثالث وهى كلمة « شىء » إذا تأملتها فى بيت عمر بن أبى ربيعة المخزومى :

ومن مالىء عينيه من شىء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وفى بيت أبى حية :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه شىء لا يمل التقاضيا

عرفت حسنها ومكانها من القبول .

فإذا نظرت إليها فى بيت المتنبى :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شىء عن الدوران

فإنك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم(٢) .

فالكلمة تحسن وتقبح بمكانها فى النظم ولو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت بلفظها وجرسها لما اختلف بها الحال ولكانت إما أن تحسن أبدا أو لا تحسن أبداً وهو ما أثبتنا فساده ...

ولكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا إذن قسم البلاغيون الألفاظ إلى فصيحة وغير فصيحة ؟ والإجابة عن ذلك نقول : إن ماذكرناه لا يتناقض

---

(١) المثل السائر ١/ ٣٨٤ .

(٢) انظر دلائل الإعجاز / ٤٨ .

مع ماقرره البلاغيون لأن غير الفصيح عند البلاغيين هو اللفظ المتنافر الحروف ، أو المخالف للقياس اللغوى ، أو الغريب ، والألفاظ المتنافرة والمخالفة للقياس نادرة ينبو الذوق السليم عن استخدامها وإن استعملت فلا تستعمل إلا إذا اقتضتها ضرورة شعر . فمقاماتها إذاً من الندرة والشذوذ بحيث لا يصح الالتفات اليها أو وضعها فى الحسبان .

أما الألفاظ الغريبة فهى قسمان :

غريب مستعمل وهذا لا خلاف فى جواز استعماله ما دام متسقا مع النظم الذى ورد فيه : ومنه غريب القرآن والحديث والكثير من ألفاظ الشعر الجاهلى التى قد تخفى معانيها على الكثير منا فى هذا العصر ...

غريب وحشى : والبلاغيون لا يجيزون استعماله الا اذا دعت اليه حاجة وتتطلبه مقام . يقول امام البلغاء والأدباء أبو عثمان الجاحظ « وكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عامياً وساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغى أن يكون غريباً وحشياً الا مع الأعراب البدويين فإن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس(١) » .

وما لنا نذهب بعيداً وهذا هو أفصح العرب محمد صلى الله عليه وسلم يستعمل غريب الألفاظ لاقتضاء المقام اياه .

فقد ذكر أنه لما قدمت وفود العرب على النبى صلى الله عليه وسلم قام طهفة بن أبى زهير النهدى متحدثاً عن وفد قبيلة بنى نهد احدى قبائل اليمن فقال: أتيناك يارسول الله من غورى تهامة على أكوار الميس ترتمى بنا العيس نستحلب الصبير ونستجلب الحبير ونستمضد البرير ونستخيل الرهام ونستحيل

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٧٨ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

الجهام فى أرض غائلة النطاء غليظة الوطاء وقد نشف المدهن ويبس الجعثن. وسقط الأملوج ومات العسلوج . برئنا إليك يارسول الله من الوثن والعثن ، وما يحدث الزمن لنا دعوة السلام وشريعة الإسلام(١) .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم بارك لهم فى مخضها ومحضها ومذقها وفرقها وابعث راعيها فى الدثر بيانع الثمر والفجر له الثمد وبارك له فى المال والولد من أقام الصلاة كان مسلما ومن آتى الزكاة كان محسناً ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصا ... لكم يابنى نهد ودائع الشرك ووضائع الملك لا تلغطوا فى الزكاة ولا تلحدوا فى الحياة ولا تتثاقل عن الصلاة(٢) .

كما جاء فى خطابه صلى الله عليه وسلم إلى هذه القبيلة : لكم يابنى نهد فى الوظيفة الفريضة ولكم الفارض والفريش ، والفلو الضبيس لا يمنع سرحكم ولا ينضد طلحكم ولا يحبس دركم ولا يؤكل أكلكم ما لم تضمروا الإماق ، وتأكلوا الرباق(٣) » .

---

(١) الميس : شجر تتخذ منه الرحال ، الصبير : السحاب الكثيف ، الخبير : العشب ، مستعضد البر : نجنى ثمر الأراك الرهام : جمع رهمة وهى المطر الضعيف الدائم ، الجهام : السحاب قد أراق ماءه ، النطاء : البعد ، المدهن : مستنقع الماء . الجعثن : أصل النبات ، الأملوج : ورق كورق السرو لشجر بالبادية ، العثن : الصنم الصغير .

(١) المخض : اللبن الخالص ، المزق : اللبن الممزوج بالماء ، الفرق : القطيع من الغنم ، الدثر : الكثير من كل شىء ، الثمد ، الماء القليل لا مادة له ، ودائع الشرك : الغنائم التى تغتنم من المشركين ، تلغطوا : تجحدوا الحق .

(٣) المثل السائر ١/٢٣٢ ، ٢٣٣ تحقيق د/ الحوفى ، د/ بدوى طبانة . الوظيفة : النصاب فى الزكاة ، الفريضة : الهرمة المسنة والمراد أنها لا تؤخذ منهم فى الزكاة ؛ الفارض ؛ المسنة مثل الفريضة ؛ الفريش : التى وضعت =

فى كلام الرسول عليه السلام الكثير من الغريب الوحشى لكنه لم يجانب البلاغة ولم يخالف المقام لأنه رد على من يخاطبه بمثل هذا الكلام وهى ألفاظ تشيع بين هؤلاء القوم ومن يداخلهم ولا تجوز فى غير أرضهم .. وقد انفرد الرسول عليه السلام بمعرفة غريب لهجات القبائل حتى قال له على رضى الله عنه وقد سمعه يخاطب وفد بنى نهد : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم العرب بما لا نفهم أكثره فقال عليه الصلاة والسلام : أدبنى ربى فأحسن تأديبى ،

فمثل هذه الألفاظ تعاب وتكره وتفسد نظم الكلام وبلاغته إذا استعملت فى غير موطنها ومقامها . ولأجل ذلك عاب البلاغيون هؤلاء الذين يتباصرون بالغريب ويتكلفون حفظه وروايته ثم يديرونه على ألسنتهم وفى مجالسهم دونما مقام يقتضيه ونظم يتطلبه .

وقد هاجمهم الجاحظ فى تعليقه على قول يحيى بن يعمر لرجل خاصمته امرأته إليه « إن سألتك ثمن شكرها وشبرك أنشأت تطلها وتضهلها » ذكر الجاحظ تعليقا على ذلك قوله « فإن كانوا إنما رووا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة وبلاغة فقد باعده الله من صفة الفصاحة والبلاغة» وقد ذكر أبو هلال العسكرى أن أحد الأمراء قد اعتلت أمه فكتب رقاعا وطرحها فى المسجد الجامع بمدينة السلام وقد جاء فيها : رحم الله رجلا دعا لإمرأة أنفحلة مقشنة قد منيت بأكل الطرموق فأصابها من أجله الاستمصال أن يمن الله عليها بالاطرغشاش والأبرغشاش ، (١)

= حديثا ، الضبيس : المهر الصعب ، الأماق : نكث العهد ، الرباق : حبل تشد به البهيمة والمعنى تقطعوا رباق العهد الذى فى أعناقكم .

(١) مقشنة : كبيرة السن يقال: اقشن الرجل إذا كبر وعسا ، الطرموق الطين ، الاستمصال : الإسهال الاطر غشاش والابر غشاش : الرء والشفاء

فكان كل من قرأ رفعته دعا عليه ولعنه ولعن أمه ، وما ذلك إلا لأن الرجل لم يراع حق المقام ولم يتخير من الألفاظ ما يتناسب وحال المخاطبين(١)

فالمقامات التى يستعمل فيها الغريب مقامات قليلة والغالب الأعم فى الأساليب هو البعد عن مثل هذه الألفاظ وقصرها على المقامات التى تتطلبها كالمقام الذى تحدث فيه الرسول ﷺ ومقامات الرد على من يتباصرون بالغريب ويدعون العلم به .

ويجب أن يكون معلوما أننا ونحن نتحدث عن حسن استخدام الألفاظ وجودة النظم لسنا مع جواز الاستعمال بحال ولا نحن منه بسبيل ، فاللفظ قد يكون جائز الاستعمال ولكن هناك من الألفاظ ما هو أفضل منه فعلى المتكلم البليغ والكاتب الأديب أن يتخير الأفضل دائما ، وهذا عمل يحتاج إلى علم ودقة وبراعة .. فالألفاظ قد تحسن أو تقبح بنقلها من صيغة إلى صيغة أخرى ومن استعمال إلى استعمال آخر والبليغ يجب أن يكون على دراية وعلم بكل ذلك .

ومن أمثلة ذلك مثلا كلمة « خود » بمعنى أسرع فهى غريبة غير مقبولة إذا استعملت فعلا فلا تقول : « خود الرجل » بالتضعيف إلا فى مقام الألغاز أو إدعاء المعرفة ، فاذا استعملت هذه الكلمة اسما فقلت مثلا : هذه امرأة « خود » بسكون الواو وهى المرأة الناعمة قل قبحها ... ومن ذلك أيضا كلمة « ودع » لا تحسن هكذا بصيغة الماضى وتحسن بصيغة المضارع والأمر فلا نقول : ودعت هذا الأمر .. وإنما نقول : تركت هذا الأمر ، ونقول: فلان يدع هذا الأمر ... ومثلها لفظة « وذر » قبيحة فى الماضى حسنة فى المضارع والأمر وقد جاءت فى القرآن على صيغتى المضارع والأمر فقط .

قال تعالى « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه » ١٧٩ آل عمران

---

(١) انظر الصناعتين ٤٤

وقال « فذرهم يخوضوا ويلعبوا » الزخرف ٨٣ ، وقال « لا تبقى ولا تذر » المدثر ٢٨ (١)

وقد يكون اللفظ بحيث إذا استعمل مفردا كان كريها ثقيلا فاذا جمع أو أضيف حسن استعماله والمثال على ذلك لفظ « اللب » يقبح مفردا فى أى نظم كان فلا تقول : « هذا لب » أو (اللب أفضل أعضاء الجسم)

والمستخدم فى مثل هذا النظم كلمة (العقل) تقول : هذا عقل لا كل العقول والعقل يتفاوت من إنسان لآخر ، فإذا جمعت كلمة اللب فقلت : أولوا الألباب يفهمون) كان اللفظ حسنا ولهذا لم يرد فى القرآن إلا بجمعها قال تعالى « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » ص ٢٩ . وقال (إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب) الزمر ٢١.

وكما تحسن جمعا تحسن مفردة بشرط أن تكون مضافة أو مضافا اليها . فتقول : لا يعلم هذا الأمر إلا ذو لب ، وإن فى ذلك لعبرة لكل ذى لب كلام حسن لا غبار عليه ، وقد ورد اللفظ مضافا فى قول الرسول ﷺ (ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من أحداكن يامعشر النساء) كما جاء مضافا اليه فى قول جرير :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا (٢)

وقد يكون اللفظ مستعملا ولكن الذوق ينبو عن استعماله لعدم استساغته ولوجود ما هو أفصل وأكثر استعمالا منه . فكلمة (فارح) اسم فاعل من (فرح) فى قول اشجع السلمى :

---

(١) انظر المزهر ١/١١٩

(٢) انظر المثل السائر ١/٣١٤ ، ٣٨٥ والمزهر ١/١١٩

فما أنا من حزن وإن جل جازع ولا بسرور بعد موتك فارح

ليست حسنة ولا مستساغة والمقبول أن يصاغ اسم الفاعل من فرح على فرح بكسر العين والقرآن الكريم لم يستعمل إلا فرح قال تعالى « كل حزب بما لديهم فرحون » ٥٣ المؤمنون (إن الله لا يحب الفرحين) القصص ٧٦

ومما يحسن مفرداً ويقبح جمعا المصادر كلها ، ولأجل ذلك لم يجمع السمع في قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) البقرة ٧ حيث جيء بكلمة القلوب والابصار بجموعتين وأفرد السمع وهي واقعة بينهما لأن السمع مصدر وجمعه غير حسن أما القلب والبصر فهما اسمان والاسم يجمع .

وهذا وإن كان صحيحا إلا أن في إفراد السمع لطيفة أخرى روعيت من جملة بلاغة القرآن تلك هي أن القلوب متفاوته واشتغالها بالتفكير مختلف باختلاف وضوح الأدلة وبالكثرة والقلة وتتلقى أنواعا كثيرة من الآيات ولكل عقل حظه من الإدراك . كما أن الابصار أيضا متفاوتة لأنها تتعلق بالمرئيات ، ولكل بصر حظه من الالتفات ، إلى ما فيها من آيات وعبر ومواعظ فلما اختلفت أنواع ما تتعلقان به جمعتا . وأما الاسماع فإنها تتعلق بسماع ما يلقى اليها ، فالجماعات اذا سمعوا القرآن مثلا سمعوه سماعا متساويا وإنما يتفاوتون في تدبره والتدبر من عمل العقول ، فلما اتحد تعلقها بالمسموعات جعلت سمعا واحدا (١)

واذا كان الذوق قد دخل طرفا في الحكم على الالفاظ بالحسن أو القبح فقد أصبح من الأهمية بمكان أن يكون البليغ صاحب ذوق سليم نما وتكون بمدارسة قواعد اللغة والمعرفة بقوانين البلاغة .

---

(١) انظر التحرير والتنوير ص ٢٥٦ للاستاذ محمد الطاهر عاشور الدار التونسية للنشر

وإنما كانت معرفة القواعد والإلمام بها أمراً ضرورياً حتى لا يترك للذوق الحبل على الغارب مما يؤدى إلى الفوضى فى اختيار الألفاظ ونظم التراكيب فأذواق الناس مختلفة وما يروق لهذا قد لا يروق لذاك .

فمعرفة القواعد والإلمام بها ضرورة لأنها تحدد منهج الذوق لكن بشرط أن تكون مرنة تتسع لأذواق الدارسين للبيان وأهل الطبع فيه ... ... وإذا كنت قد أطلت فى الحديث عن اللفظ فلا ينبغى أن يفهم ذلك على أن القصد اليه مقصور لا عما يجاوره ، فاللفظ بمفرده لا قيمة له إلا اذا ارتبط بغيره بنفى أو اثبات فيكون محكوماً به أو محكوماً عليه أو متعلقاً بأحدهما ...

والبلاغيون يطلقون على طرفى الجملة اسم « المسند إليه والمسند » وهما الركنان الرئيسان فى الجملة وما عدا ذلك يتعلق بهما بوجه من الوجوه ومهمة علوم البلاغة هى دراسة الأحوال التى تطرأ على أجزاء الجملة من تعريف وتنكير وحذف وتأكيد وغير ذلك ، وكما اهتمت هذه العلوم بالنظم داخل الجملة الواحدة اهتمت كذلك بكيفية الربط بين الجملة وغيرها ، وأسلوب الكلام ومعناه يختلف باختلاف هذه الأحوال ...

فإذا قلنا مثلا إن مقام تعريف المسند غير مقام تنكيره وأن معنى الكلام مع التعريف غيره مع التنكير كان ذلك كلاماً مستقيما

فقولك مثلا : محمد أمين غير قولك : « محمد الأمين » الأول مجرد إخبار يلقى لمن لا علم له بذلك ، أما الثانى فلا يقال إلا عند إرادة التخصيص والمبالغة لإثبات أن تلك الصفة لا توجد إلا فيه أو أنها قد بلغت عنده حدها الأعلى بحيث إذا قيس غيره به كان لا شىء ... فالكلام فى الأول مع من لا يعرف اتصاف محمد بتلك الصفة، وفى الثانى مع من يعرف تلك الصفة ولكنه يرددها بين محمد وغيره ... ولأجل ذلك أجاز البلاغيون العطف على المسند إليه

فى الأول دون الثانى فقولك محمد أمين وعلى ، كلام صحيح ، وقولك : « محمد الأمين وعلى » كلام فاسد عند البلاغيين ، وما ذاك إلا لأن المقام فى الأول مقام إخبار وإعلام باتصافه بتلك الصفة وهذا لا يمنع اتصاف غيره بها أيضا ولذا جاز العطف ، أما الثانى فالمقام فيه مقام تخصيص ومبالغة وكأنك تريد أن تقول إن تلك الصفة عنده قد بلغت حداً لا يتصور فى غيره فكأنه الأمين وحده ... وإذ كان الحال يختلف بين تعريف المسند وتنكيره بحيث يكون معنى الكلام مع هذا غيره مع ذاك ، فإن معنى النظم أيضاً يختلف بين أن يكون المسند اسماً أو فعلا فقولك : الطالب مجتهد ، غير قولك : الطالب يجتهد . المقام فى الأول مقام إثبات اجتهاد دائم غير متجدد للطالب فهو كما يقول عبد القاهر بمنزلة قولك : محمد طويل ، وعمر قصير ، والمقام فى الثانى مقام إثبات اجتهاد يتجدد مرة بعد أخرى ... وقد استشهد البلاغيون للفرق بينهما ، وعلى أن هذا لا يصلح فى موضع ذاك بقول جؤبة بن النضر :

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا لكن يمر عليها وهو منطلق

الشاهد فى قوله « وهو منطلق » والمعنى فيه على أن الانطلاق ثابت للدرهم من غير اعتبار تجدد ، ولو قلته بالفعل أى . « وهو ينطلق » لم يحسن ، وما ذاك إلا لأن المعنى فيه يكون على أن الانطلاق للدرهم يتجدد مرة بعد مرة وذلك لا يليق بمقام المدح الذى يقصده الشاعر ... والذى يريد أن يقوله : هو أن الدرهم لا يدخل صرتهم وأن الانطلاق أمر ثابت مستمر له . ويقول الإمام عبد القاهر : اذا أردت التأكيد من أن أحدهما لا يصلح فى موضع الآخر فانظر الى قوله تعالى : « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » ١٨ سورة الكهف . فإن أحدا لا يشك فى امتناع الفعل ههنا وأن قولنا : « وكلهم يبسط ذراعيه » لا يؤدى الغرض وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضى مزاولة وتجدد الصفة فى الوقت ، ويقتضى الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل ومعنى يحدث شيئاً

فشيئا(١) ، وان أردت مزيداً من الإيضاح فى هذا الموضع فانظر الى قولهم : محمد طويل وعمر قصير حيث لا يمكن لعاقل أن يدعى أنهما يتساويان مع يطول ويقصر ، وانما نقول يطول ويقصر اذا كان الحديث عن شىء يزيد وينمو كالنبات والظل مما يتجدد فيه الطول أو يحدث فيه القصر فأما ونحن نتحدث عن هيئة ثابتة وعن شىء قد استقر طوله ولم يكن ثم تزايد وتجدد فلا يصلح فيه إلا الاسم(٢) .

واذا كان الفعل فيما سبق لا يصلح فى موضع الإسم فإن هناك من المواضع ما لا يصلح فيه إلا الفعل مثل قول الأعشى :

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة
الى ضوء نار فى يفاع تحرق

والشاهد فى قوله « تحرق » الواقع صفة للنار ، والمعنى فيه على أن هناك موقداً يتجدد منه الإلهاب والاشتعال حالا فحالا ، ولو قال الى ضوء نار متحرقة لنبا عنه الطبع وأنكرته النفس لأن المعنى على أن هناك ناراً قد ثبت لها وفيها هذه الصفة دون أن يدل على أن هناك فعلا يفعل ... ومما جاء من ذلك أيضاً قول طرفة بن تميم :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة
بعثوا الى عريفهم يتوسم(٣)

---

(١) دلائل الاعجاز ١٢٢ .

(٢) انظر دلائل الإعجاز ١٢٢ .

(٣) عريف القوم : هو القيم بأمرهم الذى شهر بذلك — يتوسم : أى يتفرس الوجوه ويتأملها .

فالمعنى أن التوسم والتأمل يتجدد من العريف حالا فحالا ويصدر منه النظر لحظة فلحظة(١) وعما جاء من ذلك فى كتاب الله قوله تعالى « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » البقرة «٣» فقد أجريت هذه الصفات على الذين كانوا مشركين فسمعوا الدعوة المحمدية فتدبروا فى النجاة واتقوا عاقبة الشرك وآمنوا ، فالباعث الذى بعثهم على الإسلام هو التقوى والنظر فى العاقبة، ولذلك وصفهم بأنهم يؤمنون بالغيب بعد أن كانوا يكفرون بالبعث والمعاد وجىء بصيغة المضارع الدالة على التجدد إيذانا بتجدد إيمانهم بالغيب وتجدد إقامتهم للصلاة والإنفاق إذ لم يكونوا متصفين بذلك إلا بعد أن جاءهم هدى القرآن ... ومنه أيضاً قوله تعالى « وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم » فقد جاء فى حكاية كلام المنافقين بالمسند الإسمى فى قوله « إنما نحن مستهزئون » لإفادة كلامهم معنى دوام صدور الاستهزاء منهم وثباته بحيث لا يحولون عنه .

وجىء فى قوله تعالى « الله يستهزىء بهم » بالفعل المضارع لإفادة التجدد، فمعنى استهزاء الله بهم أن يفعل بهم فى الدنيا ما يسمى بالاستهزاء بأن يملى لهم حتى يظنوا أنهم سلموا من المؤاخذة على استهزائهم ثم بعد ذلك ينزل بهم العقاب ويفضحهم فإملاء الله لهم يتجدد فى صور مختلفة ثم بعد ذلك ينزل عليهم نكاياته وبلاياه ليعلم المسلمون أن إملاء الله لهم لم يكن إلا استهزاء بهم(٢) ومن الفروق التى تتصل بهذا الأمر أنه يجوز لك فى حالة مجىء المسند فعلا أن تعطف عليه ما يناقضه فتقول فلان يقوم ويقعد ، ولا يجوز ذلك فى حالة مجيئه اسما فلا تقول : فلان قائم وقاعد . ولا يخفى سر ذلك بعد أن عرف ما يدل عليه كل منهما .

---

(١) انظر المطول ١٥٠ ، ودلائل الاعجاز ١٢٣ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ص ٢٩٤ .

وإذا كان معنى الكلام وغرضه يتغير تبعا لتغير حال المسند إليه أو المسند وموقع كل منهما من النظم . فليس من شك فى أن معنى الكلام وغرضه يختلف بزيادة قيد أو أكثر على الجملة وهو ما يطلق عليه البلاغيون اسم متعلقات الفعل .

فقولنا مثلا : الطالب يفهم ، لا يفيد أكثر من إثبات الفهم للطالب على الاطلاق فإذا زدت على النظم قيدا فقلت : الطالب يفهم البلاغة ، تغير معنى النظم ومفهومه بحيث لا يصبح إثبات الفهم للطالب على الإطلاق بل إثبات الفهم الواقع على البلاغة ويكون اتجاه الكلام ومقصوده إلى بيان ما وقع عليه الفعل لا إلى إثباته للفاعل يقول الامام عبد القاهر : « إن الفعل إذا تعدى إلى المفعول تغير الغرض والمعنى من النظم فإذا قلت هو يعطى . كان غرضك إثبات الإعطاء فعلا له وكان كلامك مع من نفى أن يكون قد كان منه إعطاء ، وإذا قلت ، هو يعطى الدنانير ، كان المعنى على أنك قصدت أن تعلم السامع أن الدنانير تدخل فى عطائه أو أنه يعطيها خصوصا دون غيرها، وكان غرضك على الجملة بيان جنس ما تناوله الإعطاء لا الإعطاء فى نفسه ، ولم يكن كلامك مع من نفى أن يكون أنه قد كان منه إعطاء بوجه من الوجوه ، بل مع من أثبت له إعطاء إلا أنه لم يثبت له إعطاء الدنانير »(١)

وهكذا يكون المعنى كلما زدت شيئا على النظم وجدت المعنى قد صار غير الذى كان ، فالمعنى فى قولك : الطالب فهم البلاغة فى شهرين ، غير المعنى فى قولك الطالب فهم البلاغة ، والمقام فى هذا غير المقام فى ذلك . فالكلام فى الثانى يكون مع من وقع فى وهمه أن الطالب لم يفهم البلاغة بعد والكلام فى الأول مع من عرف أن الطالب قد فهم البلاغة ولكنه ظن ، أن فهمه لها استغرق أكثر أو أقل من شهرين ، وهكذا اذا قلت : حضر عمرو ماشيا ،

---

(١) دلائل الاعجاز ١١١ .

فإنه لا يستقيم إلا إذا كان هناك ظن من المخاطب أنه ربما يكون قد جاء راكبا .

فمناط الكلام ، إنما هو القيد الأخير لأنه الذى يحدد غرض الكلام ومقصوده « تأمل قول الفرزدق » .

وما حملت أم امرىء فى ضلوعها   أعق من الجانى عليها هجائيا

تجد أن صورة المعنى الذى أراده الفرزدق لا تتبين لك الا عند آخر حرف من البيت حتى انك لو قطعت عنه قوله : هجائيا بل الياء التى هى ضمير الفرزدق لم يكن الذى تعقله منه مما أراده الفرزدق بسبيل . . ذاك لأن غرضه تهويل أمر هجائه والتحذير منه وأن من عرض أمه له كان قد عرضها لأعظم ما يكون من الشر (١) ، ومن المعلوم أن سبيل النظم فى الجملة الواحدة هو سبيل النظم فى الجمل يجىء بعضها اثر بعض بعطف أو بدون عطف ، بمعنى أنه اذا كان الغرض والمقام يختلف باختلاف التركيب فى الجملة الواحدة فهذا هو سبيل الجمل يتصل بعضها ببعض .

فمن دقائق عملية النظم معرفة أسرار الفصل والوصل بين المفردات والجمل فهى أمور يجب أن يكون البليغ على علم تام بها فيعرف متى يعطف ومتى يدع العطف ومعانى حروف العطف حتى يتخير لكل منظم ما يناسبه ولكل مقام ما يوافقه وقد ذكر الإمام عبد القاهر : أن معرفة هذه الأمور من الاسرار البلاغية الدقيقة ولا يتأتى لتمام الصواب فيها الا الاعراب الخلص والاقوام طبعوا على البلاغة وأوتوا فنا من المعرفة فى ذوق الكلام هم به أفراد ، وقد بلغ من قوة هذا الأمر أنهم جعلوه حدا للبلاغة فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عن البلاغة فقال : معرفة الفصل من الوصل وذلك لغموضه ودقة

---

(١) دلائل الاعجاز ٣٢٨ .

مسلكه وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل فى سائر معانى البلاغة (١) .

كما اعتبره السكاكى محك البلاغة ومضمار النظار ومعيار قدر الفهم ومسبار غور الخاطر ومنجم صوابه وخطئه ومعجم جلائه وصدائه ومن طبق المفصل فيه كان من البلاغة فى أعلى مكان(٢) .

فأدوات العطف كثيرة ولكل أداة معنى تدل عليه ونظم توضع فيه فإذا وضعت احداهما مكان الأخرى أفسدت النظم . فقول القائل :احضروا الظالم والمظلوم غير قوله : احضروا الظالم فالمظلوم . غير قوله : احضروا الظالم أو المظلوم . وهذه أمور واضحة لا تحتاج الى بيان .

وقبل أن نعرض لبعض أسرار عطف الجمل ينبغى أن نعرف أن عطف المفردات ونظمها يحتاج أيضاً الى شىء من الدقة ويؤثر تأثيرا كبيرا فى المعنى والغرض المسوق له الكلام .

فإذا عطفت على المسند اليه مثلا قبل مجىء المسند اختلف معنى الكلام عنه اذا عطفت بعد مجىء المسند ، وبمعنى أوضح فإن قولك : محمد عالم وخالد غير قولك : محمد وخالد عالمان ، فبالرغم من اتفاق الجملتين فى أصل المعنى فإن بينهما فرقا دقيقا وهو أن التركيب الاول يدل على تفوق محمد فى العلم على خالد . أما التركيب الثانى فيدل على انهما على قدر سواء فى الصفة وعلى ذلك جاء قول الشاعر ضابىء بن الحارث البرجمى :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإنى وقيار بها لغريب

---

(١) دلائل الاعجاز ١٤٩ .

(٢) انظر مفتاح العلوم ١٨٩ .

فقد عطف « قيار » على محل اسم إن قبل مجيء الخبر لقصد التسوية بينهما في التحسر بسبب الغربة وكأن الاغتراب أثر في غير ذوى العقول أيضاً حتى تساوى في الحزن مع العاقل ... بيان ذلك لو أنه قيل : فإنى لغريب وقيار لجاز ان يتوهم أن له مزية على قيار في التأثر بالغربة فقدمه ليتأتى الإخبار عنهما دفعة بحسب الظاهر تنبيهاً على أن قيارا وهو من غير ذوى العقول قد تساوى مع العقلاء في تحسره وحزنه بسبب الغربة(١) فمكان المعطوف من النظم قد حدد معنى الكلام وغرضه .

فمجيء واو العطف بين المفردات أو تركها لايخلو من سر بلاغى في الغالب الأعم تأمل قوله تعالى « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا » التحريم ٥ تجد أن الصفات قد وردت متتابعة وأخليت جميعها من الواو ثم جيء بها بين الثيبات والأبكار لأنهما صفتان متنافيتان لايجتمعن فيهن في وقت واحد(٢) .

ولعل هذا يفسر لنا سر مجيء الواو في قوله تعالى « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » الحديد ٣ .

فالواو الأولى معناها الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء ، وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين والآخريين وهى صفات لاتكون إلا للخالق جلت قدرته فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية وهو في جميعها ظاهر وباطن جامع للظهور بالأدلة ، والخفاء فلا يدرك بالحواس(٣)

---

(١) انظر المطول ص ١٤٠

(٢) أنظر الكشاف ٢٨ المجلد الرابع

(٣) الكشاف المجلد الرابع ٦١

فإذا جئت إلى قوله تعالى فى صفات المنافقين « صم بكم عمى » البقرة ١٨ وجدت أن السر فى عدم مجىء الواو بين هذه الصفات أنه أراد أن يجمع هذه الصفات على كل واحد منهم بمعنى أن كل واحد منهم اتصف بهذه الصفات مجتمعة فهو أصم وأعمى وأبكم ولو توسطت الواو فى هذه الحالة لتوهم أن المعنى على التوزيع وأن بعضهم أصم وبعضهم أبكم وبعضهم أعمى . وهذا من دقائق الإعجاز فى نظم القرآن ...

وإذا كان العطف وتركه بين المفردات يحتاج إلى شىء من الدقة فى التأمل لمعرفه أسراره فإن حاجة الجمل إلى ذلك أولى وأشد ...

وقد ذكر البلاغيون أن الأسرار البلاغية تدق وتلطف فى العطف بالواو خاصة دون سائر حروف العطف لأن تلك الحروف عدا الواو لها مع الإشراك ، وهو المعنى العام الذى تشترك فيه حروف العطف ، معان أخرى فالفاء للترتيب التعقيبى وثم للترتيب المتراخى وأو للتخيير وهكذا بإذا عطفت بإحدى هذه الأدوات كان العطف من أجل إفادة هذه المعانى ، وليس للواو معنى سوى الإشراك والجمع . ولا يتصور إشراك بين أمرين حتى يكون هناك معنى يقع فيه الإشراك وهذا المعنى هو الذى يبحث عنه البليغ ليكون كلامه متسق النظم مؤديا للمعنى المراد منه ...

ومما تجب الإشارة إليه أن الإتصال بين الجمـــل يتم بطريقين : طريق الاتصال الذاتى بأن تكون الجملة الثانية تأكيداً للأولى أو بياناً لها أو بدلا منها وفى تلك الأحوال الثلاثة يمتنع عطفها عليها لأن الربط الذاتى بينهما يغنى على ربطها بحرف فمعنى الجملة الثانية فى هذه الحالة هو معنى الأولى والشىء لا يعطف على نفسه .

طريق الاتصال غير الذاتى وذلك إذا كان بين الجملتين مناسبة من وجه ومغايرة من وجه آخر والربط بين الجملتين فى تلك الحالة يحتاج إلى حرف العطف .

ونست هنا فى مجال تفصيل تلك الأمور فالمقام لايتسع لذلك ولتفصيلها مكان آخر .

وكل مايعنينى هنا أن أبين أن غرض النظم ومعناه يختلف بتوسط الواو بين الجملتين أو عدم توسطها كما يختلف أيضاً إذا استبدلت الواو بغيرها من حروف العطف .

ومن أمثلة الاتصال الذاتى بين الجمل قوله تعالى «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين يخادعون الله» لم يقل «ويخادعون الله» لأن هذه المخادعة ليست شيئاً غير قولهم آمنا دون أن يكونوا مؤمنين .

فهى إذن تأكيد لما قبلها ولذا أخليت من العطف ولو عطفت بالواو لكانت المخادعة شيئاً آخر غير قولهم آمنا وهم ليسوا بمؤمنين .

هذا وفى نظم الآية الكريمة سوى ذلك الكثير من الأسرار والأعاجيب نشير إلى بعضها ... أولى هذه الدقائق : تقديم الخبر وإبهامه فى قوله تعالى «ومن الناس» ففى تقديمه تنبيه للسامع على عجيب ما سيذكر وتشويقاً لمعرفه مايتم به الكلام وفى إبهامه دليل على أن مدلوله فى غاية النقصان ...

وفى الجمع بين الإيمان بالله وباليوم الآخر محاولة لإبهام منهم بأنهم أحاطوا بجانبى الإيمان أوله وآخره وفى تكرار «الباء» مع العاطف تأكيد منهم وادعاء بأن كل واحد من الإيمانيين على صفة الصحة والاستحكام نفياً للريبة وإبعاداً للتهمة فكانوا كما قيل : يكاد المريب يقول خذونى .

ثانى هذه الدقائق هو نفى إيمانهم بالجملة الإسمية مع أنهم أثبتوه بالجملة الفعلية وذلك لأنه أراد إنكار ماادعوه ونفيه على أبلغ وجه وآكده فعبر بالجملة الإسمية لإخراج ذواتهم من طائفة المؤمنين ودخلت الباء فى خبرها لتأكيد النفى(١) .

---

(١) انظر الكشاف جـ ١ ص ١٦٩

ثالث هذه الأسرار أنه عبر بـ « يخادعون » أولا وبـ « يخدعون » ثانياً فى قوله « وما يخدعون إلا أنفسهم للإشارة إلى أن الله تعالى والمؤمنين لن يضاروا من تلك المخادعة وأن ضرر الخداع راجع إليهم هم فكأنهم خدعوا أنفسهم .

أما الاتصال غير الذاتى : أى الذى يحتاج إلى حرف العطف فكقوله تعالى « الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » حيث عطفت الجمل الواقعة فى صلة الموصول على بعضها بالواو لأن بينها مناسبة من وجه ومغايرة من وجه ، فالمناسبة أنها صفات اتصف بها طائفة من المؤمنين والقصد إلى الجمع أى أن هذه الصفات قد اجتمعت لهم كما وأن الصلة بين تلك الجمل واضحة غير خفية ...

والمغايرة هى أن كل صفة منها تغاير الأخرى وليست نفسها . فالإيمان بالغيب غير إقامة الصلاة غير إيتاء الزكاة ، وإقامة الصلاة غير إيتاء الزكاة ، ولو أخليت الواو من بين هذه الجمل فقيل مثلا « الذين يؤمنون بالغيب ، يقيمون الصلاة لتوهم أن إقامة الصلاة بيان أو بدل من الإيمان بالغيب أو أن قوله يقيمون الصلاة رجوع عن قوله : يؤمنون بالغيب . كما تقول : فلان يحارب يعطى الفقراء . فيحتمل أن يكون قولك يعطى الفقراء رجوعا عن قولك يحارب والأمر فى الآية ليس كذلك ...

وقد حسن العطف بين تلك الجمل لأن ذكر الإيمان بالغيب يتوارد فى النفس مع ذكر الصلاة وإقامة الصلاة تقترن فى الذهن دائماً بإيتاء الزكاة ...

وقد اشترط البلاغيون وجود المناسبة حتى يصح العطف وأن تكون تلك المناسبة بين المسند إليه ، والمسند فى كلتا الجملتين . فلو قلت : هزم العرب أعداءهم ودخل أخى الامتحان وهو خائف قلت مايضحك منه لأنه لامناسبة بين معنى النظم فى الجملة الأولى ومعناه فى الجملة الثانية ولا تعلق لأحدهما بالآخر .

ومن الأمور الهامة التي يجب مراعاتها أن عملية الربط بين الجملتين بعاطف أو بدون عاطف وإن كانت ترتبط ارتباطاً مبـــاشراً بالجملتين المتجاورتين إلا أنها ترتبط أيضاً بالجار الأبعد وبخصائص معينـــة في النظم ككل ...

تأمل قول الحق جل وعلا في سورة البقرة «يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ، وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم» البقرة ٤٧، ٤٨، ٤٩ .

وقوله تعالى في سورة إبراهيم . «ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم» سورة ابراهيم ٥ ، ٦ .

تجد أنه تعالى قد جاء في سورة البقرة بجملة «يذبحون» بلا واو وفي سورة ابراهيم بالواو . ولإدراك سر ذلك علينا أن نتدبر نظم كل آية ، ففي سورة البقرة خاطب الله بني اسرائيل مباشرة وذكرهم بعظيم نعمه عليهم ومواجهة الله لهم بالخطاب تعني خطورة وعظمة ما كان لأجله الخطاب ومن ثم أجمل وأبهم أولاً ثم فصل وبين ثانياً ، أنهم في قوله : يسومونكم سوء العذاب وبين هذا الإبهام والإجمال بقوله : يذبحون أبناءكم ، كما وأن الله تعالى لم يرد تعداد المحن عليهم فلم يأت بالواو ...

أما في سورة ابراهيم فقد جاء كلام الله تعالى على لسان موسى عليه السلام ،

ولم يكن مواجهة من الحق لهم حيث أمر موسى عليه السلام بأن يذكرهم بأيام الله . هـذا التذكير يقتضى تعديد المحن التى نجاهم الله منها . وأتى بالواو فى قوله « ويذبحون » لبيان أن التذبيح وإن كان من جنس العذاب الا أنه لفظاعته اعتبر كأنه جنس آخر مستقل فنجاهم الله من اسامة العذاب ومن التذبيح . فجىء الواو للإشارة الى أن التذبيح جنس آخر غير اسامة العذاب لأن العطف لا يكون الا بين متغايرين كما هو معروف .

فالمقام وصدور العبارة من قائل معين هو الذى يحدد الإتيان بالواو وتركها فى مثل هذه الأساليب

وبمثل هذا التفسير نستطيع أن نفسر سر مجىء الواو فى نظم ثم العدول عنها الى الفاء فى نظم آخر مشابه للأول ، كما نراه فى قوله تعالى فى سورة البقرة « وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً » الآية ٥٨ .

وفى سورة الأعراف « وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم » الآية ١٦١ ، جىء بالفاء فى الآية الأولى لمناسبة قوله « ادخلوا » لأن الدخول سريع الانقضاء ، فيعقبه الأكل ، أما الآية الثانية فالأمر فيها بالسكنى والمعنى أقيموا فيها وهى إقامة ممتدة ومجىء الواو لأن المقصود الجمع بين الأمرين الأكل والسكنى . وزاد فى الآية الأولى قوله « رغدا » لأن الكلام أسند إلى ذات الله بطريق التعظيم « وإذ قلنا » أما فى الآية الثانية فقال « وإذ قيل »(١) .

كما وأنه قد يعدل عن الفاء إلى ثم بالرغم من تشابه المعنيين لاعتبارات روعيت فى المقام والغرض المقصود من كل نظم كما قلنا .

---

(١) انظر أسرار التكرار فى القرآن لابن حمزة الكرمانى ص ٢٨ تحقيق عبد القادر عطا دار الاعتصام .

تأمل قوله تعالى « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ١٣٧ آل عمران ، وقوله تعالى « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ١١ ـ الأنعام إنما أتى بالفاء فى الآية الأولى لأن النظر فيها مسبب عن السير فكأنه قيل سيروا لأجل النظر : أما فى الآية الثانية فقد أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم سيروا فى الأرض ، والمقصود إباحة السير للتجارة وغيرها ، ووجوب النظر فى آثار الهالكين فكان الأمر الأول للإباحة والثانى للوجوب فأتى بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح فالسير هنا مأمور به على حدة والنظر مأمور به على حدة(١) .

ومما يتصل بهذا الأمر أيضا ما نجده فى قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام « والذى يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين » الشعراء ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ـ فقد عطف الإسقاء على الإطعام بالواو لأنه لا ترتيب بينهما وكل منهما يجوز أن يتقدم صاحبه ، وأتى بالفاء بين المرض والشفاء لأن الشفاء يعقب المرض بلامهلة وأتى بثم بين الإماتة والإحياء لما بينهما من المهلة والتراخى .

وإذا أعدت النظر فى الآية الكريمة ـ وجدت أن ابراهيم عليه السلام قد نسب المرض إلى نفسه لأن الأدب أن لا ينسب إلى الله تعالى إلا ما يحمد ونسب الموت إلى الله لما فى ذلك من إظهار قدرته وقهره ولم ينسبه إلى نفسه بالرغم من أنه غير مستحب عند أكثر الناس لأنه بالنسبة لإبراهيم عليه السلام مستحب فهو على يقين من السعادة فى الآخرة(٢) .

---

(١) انظر الكشاف حـ ٢ ص ٧ .

(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن القيم ص ١٨٨ دار الكتب العلمية بيروت

ولو قال : الذى يطعمنى ويسقين ، ويمرضنى ويشفين ، ويميتنى ويحيين ، لخلا النظم من الخصائص البلاغية الدقيقة ، تلك الخصائص التى سمت بالقرآن إلى أرقى درجات البلاغة .

وأكتفى بهذا القدر على أمل فى العودة إلى تلك القضية مرة أخـــرى وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

د . عبد الحميد مصطفى ابراهيم
مدرس بقسم البلاغة والنقد